غاندى الإنسان

يكتب الكاتبون عن غاندى فتمدهم السنون والأعمال من يوم مولده إلى يوم وفاته بمدد لا ينضب، ودافق لا ينفد فقد كان عمره منسوجا خطيا خطيا من مواقف.. والفرنسيون يقولون الرجل هو الأسلوب وأقول الرجل موقف.. الإنسان موقف لأن الموقف جماع شخصية وأسلوب تفكير وتعبير معا.. وكان غاندى هذا كله فى كل يوم من أيام حياته الحافلة الزاخرة الثرية بجلائل الأعمال السرية بمواقف يصل فيها، النبل، قمته، فى انسان

تقول دائرة المعارف البريطانية (إن غاندى من الممكن أن ينظر اليه وكأنه نبى عدم العنف فى عصر شهد حربين عالميتين) يطوف الوصف بغاندى ويطيف ولكنه يبلغ قمة ذراه فى تسمية الاستاذ العقاد له: «الروح العظيم»

قد يكون الإنسان جسما كاملا ثم تنقصه أشياء.

وقد يكون الانسان عقلا كبيرا ثم تنقصه أشياء وأشياء فالحضارة الغربية ذهن كبير لامع ومع هذا نجد فى أرقى بلادها، أعلى نسبة من الانتحار لأن الذهن على براعته، أجدبت معه الروح.

لكن غاندى كان ذهنا صافيا يخطط.. وكان فكرا نافذا يدبر.. وكان حكيما ثاقب الرأى بعيد الرؤية عنده فصل الخطاب.. وكان قلبا كبيرا بالحب لا يعرف الكره أو الحقد حتى مع الأعداء.. كان غاندى أسلوب حياة عميق الدلالة وكان رمز أمة بعيد الأثر.. وهو بهذا كله، متواكبا ومتلاقيا.. متناغيا ومتناغما.. ومتكاملاً غاندى بهذا كله: الروح العظيم.

لم يستهدف المهاتماغاندى تأصيل فلسفة نظرية. إن فلسفته تتمثل فى الصدق وبالصدق واجه كل ما اعترضه فى الحياة بالمبادىء.. طوع كل شىء فى الهند لأسلوبه لقد استوحى الهند عاشها وعاشته.جمعت الهند، وحسنا فعلت، كلمات غاندى وخطاباته وتحركاته فى اثنى عشر جزءا كبيرا.

صدرت هذه المجموعة أو الموسوعة من كتاباته وأحاديثه بالانجليزية.

صورة للحياة السياسية والحياة الشعبية العاملة

كلمات شكلت وأثرت حركة فريدة وقادت إلى النجاح..

كلمات أوحت بلا حدود إلى أشخاص وأنارت لهم.. طريقا..

كلمات ذاعت وبلورت قيما ثقافية بل روحية باقية لجميع الأعمال.

لقد كان غاندى فى سن النضوج يُرتجى.. كان مفعما بالحيوية واعدا بمزيد من العطاء عندما اغتالته يد، آثمة فخلفت صدمة فى الهند وحزنا عميقا فى أنحاء الدنيا يصعب احتماله.

فى الحقيقة لم يكن الهنود يريدون أن يروا السنين تطفىء شعلته أو تخمد حيويته وتوقده وهكذا مات كما عاش نجما متلألئا للأمل والعطاء أبا لأمة تشكلت وألفت أسلوبه على امتداد نصف قرن.

أصبح غاندى للجيل الأصغر الذى لم يعايشه.. رمزا وتقليدا وقصصا كثيرة منسوجة حول اسمه وأعماله..

كان عظيما فى حياته.. وكان أعظم فى رحيله.

كان غاندى يعتقد أن مناغاة طفل.. لمسة حنان لإنسان يعانى تغدو فى الأهمية تحدى الامبراطورية البريطانية.

كان نبراسا لأمته وليس مجرد بطل.. كان تجسيدا لقيمها الأصيلة التى تسمو بالانسان.

إن سيرته مادة للتقدم

إن كلماته.. خطاباته.. مذكراته.. تغطى حقبة من ١٨٨٤-١٩٤٨ انها موزعة فى أنحاء مختلفة وهى بالدرجة الأولى فى ثلاث:

الهند - انجلترا - جنوب افريقيا

حدث من الأحداث وقع فى مستهل حياة غاندى اعتبره مفتاح شخصيته الفذة.

لقد ذهب غاندى سنة ١٨٩٣ إلى جنوب افريقيا فى زيارة عمل كمحام بعدها كان متأهبا لمغادرة جنوب افريقيا سنة ١٨٩٤ وإذا به يرى فى الصحف عريضة يناشده فيها أصحابها أن يبقى ويساندهم.. كانت مهمة البحث عن الانصاف ومسح الحزن ورفع المعاناة عن الهنود فى جنوب افريقيا دافعا عنده، لبقائه معهم مدة تجاوزت واحدا وعشرين عاما أى حتى ١٩١٤.

على أنه قطع هذه المدة الطويلة برحلة قصيرة الى الهند استغرقت خمسة أشهر.

كان ذلك سنة ١٨٩٦.

لقد وكله الهنود فى جنوب افريقيا أن يطرح أحزانهم وآلامهم أمام السلطات فطبع غاندى كتيبا سماه «الكتيب الأخضر» لأن غلافه كان أخضر.

وذاع هذا الكتيب حتى أزمع إصدار طبعه ثانية.

وكان هذا الكتيب لسان حال مائة ألف هندى فى جنوب افريقيا.

أن يمكث الإنسان بعيدا عن وطنه عاما وإذْ يبلغ الحنين مداه وتلوح ساعة العودة بأشواقها ولهفتها، يسمع نداء استغاثة يناشده أن يبقى.. ويلتف به مواطنوه يتشبثون به.. لقد رأوا فيه أملا ومنقذا.

وكان قرارا

قرر أن يبقى..

ويبقى أعواما.

وينصرم عشرون عاما أو يزيد

ولكنه اختار

هذا هو «غاندى»

وأرسل الى حاكم ترانسفال بجنوب افريقيا صرخة دامية صرخة من لاجئى ومهاجرى الهنود فى جنوب افريقيا الذين يعانون كربا شديدا من جراء منعهم من العودة الى ديارهم.

ان الحالات التى وصلت الى مسامعنا كثيرة خطيرة جدا.. خفف الخطر فإن لم تستجب إلى لمحة إنسانية فإن من حقهم أن يعرفوا وضعهم على وجه اليقين. أجبهم اجابة شافية حتى يعرفوا حقيقة واقعهم.

هكذا خاطب حاكم ترانسفال.

وعندما تفشى الطاعون فى جوهانسبرج سنة ١٩٠١، اشترك غاندى فى تمريض المصابين غير آبه بالمخاطرة فى تفان حميم.

كانت عقيدته الصدق.. الاحسان إلى من أساء إليه.. الفروسية مع الخصوم.. كان زاهدا فى الحضارة المادية الحديثة مؤمنا بالاعتماد على النفس

فى جوهانسبرج وهب نفسه للعمل العام.

وفى المقاومة غير المتكافئة للهنود فى جنوب افريقيا ضد الأحكام والقيود الساخنة التى تمنع الدخول والاقامة والعمل.. وأخذ على عاتقه تبنى الفكرة الهندية.

حدثان تفجرا سنة ١٩٠٤ عندما تفشى الطاعون فى الحى الهندى بجوهانسبرج. وباستعداده الفطرى للعطاء والتضحية، حنا على المصابين ومرضهم وفاء للمواطنة وللإنسانية معا ومدافعا عن المساواة والعدالة معارضا غيابهما..

حمل على التمييز والظلم وانتقاص الحرية ليس فقط من أجل معاصريه ولكن من أجل الأجيال القادمة.

وفى هذه الفترة كتب العديد من المقالات والرسائل.

لقد قاد فى هذه الفترة مسيرة الهنود فى جنوب افريقيا من أجل الحرية.

وإنى أسجل لغاندى ما كتبه فى رسالته المؤرخة فى ١٣/ ٥/ ١٩٠٥ ردا على من يعزو انتشار الاسلام إلى استخدام القوة.. فكان رد غاندى على هذا أن الإسلام انتشر لتركيزه على المساواة واعتناقه هذا المبدأ، وبساطته وفضيلته الخاصة فى النظر الى الجميع كمتساوين فى الحقوق والواجبات.

ونضجت الحركة الهندية على يد غاندى وصارت واقعا محسوبا ومعدودا.

وأخذ غاندى فى كتاباته سنة ١٩٠٧ يرسخ القيم والمبادىء وروح المقاومة والاستعداد للتضحية وأخذ يطرح هذا فى صحافة جنوب افريقيا وصحافة لندن على السواء.

ومع هذا كان فى هذه الأثناء مستعدا للتفاوض السلمى.

حاول غاندى الالتقاء فى منتصف الطريق مع السلطات، حاول التوفيق.. قدم تسجيلا تطوعيا كبديل.. ولكن الحكومة، فى جنوب افريقيا، ركبت رأسها لتحمل الجمعية الهندية قصرا على أن تسلم بالقانون الجديد الخاص بالآسيويين.

كان غاندى معلما فى شعبه وكان غاندى زعيما..

وكان غاندى مصلحا يبث المبادىء والقيم ويحيى الشخصية القومية بأصالتها وطابعها.

يقول مؤلف كتاب (آسيا والسيطرة الغربية) تأليف ك. م. انيكار

[وقد أدرك غاندى أن اقليما يبلغ تعداده، أربعمائة مليون من الأنفس يكون معنى الامتناع عن التعاون فيه أنه ينبغى:

اولا: ايقـاظ الشـعب

وثانيا: أنه ينبغى أن تنظم الحركة تنظيما قويا وأن يحكم ضبطها وتؤسس على مبدأ يفهمه الجميع ورأى غاندى ذلك المبدأ فى: سياسة المقاطعة].

وفى هذه الأثناء ألم الاضطراب الخطير بالرأى العام الإسلامى لما بدا من جانب الحكومة البريطانية من اتجاه مثير الى تقسيم الاراضى الأصلية للدولة التركية بين الحلفاء الغربيين.

كما أن الاضطرابات التى حدثت ابتغاء إعادة الخلافة الى نصابها، وهى الحركة التى كانت تناصرها العناصر المسلمة بالهند، قد تقبلها غاندى جزءا من الحركة القومية.

ومرت حركة عدم التعاون بزعامة غاندى فى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى عندما استحدثت الحركة بالتحالف مع زعماء حركة الخلافة وجعل من الحركة انتفاضة شعبية ذا قوة عارمة

وتم ذلك بين ١٩٢٠- ١٩٢٤ ويقول غاندى انه تأثر فى ذلك الوقت بالثورة المصرية سنة ١٩١٩ وبسعد زغلول.

المرحلة الثانية بدأت بزحف الداندى وحركة مقاطعة الملح (١٩٢٩-١٩٣٢)

المرحلة الثالثة حركة المطالبة أى حركة (غادروا الهند) وكان هذا فى سنة ١٩٤٢

وقد شهدت الحركة الغاندية نصرها النهائى سنة ١٩٤٧ يوم غادرت بريطانيا، الهند بمقتضى الاتفاقية وختمت الفصل التاريخى الذى بدأ بمعركة بلاسى سنة ١٧٥٧.

ولعل موقف غاندى من الاسلام تقف وراءه، فضلا عن سماحته ودماثته، تعلق العالم المسلم «البيرونى» بالهند وتعلمه اللغة السنسكريتية الى حد الاتقان ثم تسجيل انطباعاته ونتائجه فى كتابه الشهير: (تاريخ الهند) الذى ترجم إلى الانجليزية فى مجلدين كما ترجم الى الانجليزية كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية).

وأخيراً فى سنة ١٩٤٧ حصلت الهند على استقلالها بعد أن فصلت عنها المناطق التى يشكل المسلمون غالبية السكان لتكون دولة باكستان الجديدة.. وتوقفت سلطات الحكومة البريطانية بالهند فى الخامس عشر من أغسطس سنة ١٩٤٧.

يوم نزل ملك انجلترا عن لقب امبراطور الهند.

إن حركة الاصلاح الدينى الهندوكى فى القرن التاسع عشر من أعظم حركات العصر، وهى حركة تتبوأ بما أوتيت من ضخامة وأهمية بعيدة المدى، مكانها بين مصاف أعظم تطورات التاريخ الحديث حيوية.

على أن استقلال الهند وانبثاقها إلى جو العالم العصرى ما كانا ليتما لولا التكيفات البطيئة الاساسية أيضا التى حدثت بين طيات الهندوكية فى مدى مائة سنة.

وواكبت الحركة السياسية، الحركة الأدبية بظهور «طاغور» كمؤثر جبار فى الأدب الهندى.. حتى يمكن أن يقال إن تحول اللغات الوطنية الى لغات عصرية عظيمة قد تم بفضله نهائيا.

وهناك اثنان جديران بالذكر بوجه خاص وهما: «سابرا مانيا بهاراتى» الشاعر التأميلى.

و «محمد اقبال» الذى كان عمله الأول، الترنم بوجه خاص بنغمة القومية والثورة.

إن صلة الهند العميقة بمصر بدأت فى القرن الأول الميلادى على يد «مدرسة الاسكندرية» التى كانت جامعة العالم القديم بما هى مهد الثقافات وملتقى الحضارات تشد اليها الرحال وتلتقى فيها العقول.

وهناك وثائق كثيرة تشير إلى زيارات هندية لمدرسة الاسكندرية وأن الاسكندرية كانت على علم تام ومعرفة كاملة بأديان الهند وفرقها ونحلها.

كما اتصل التصوف الهندى بالأفلاطونية الحديثة فى الاسكندرية على يد رجلنا «افلوطين» المصرى الصعيدى

أعود الى العظيم غاندى

لقد تضمن الجزء الثامن من موسوعة كلمات غاندى، حديثه عن فترات سجنه.. وإن الانسان ليعجب لخلوها من المرارة وهو ما لا يحدث من سجناء.

إنى أحيى غاندى الذى أردد رسالته الى الهند:

Keep absolutely Firm to the end.
Suffering is our only remedy.
Victory is certain

وقد تحقق بالفعل نصر الهند بالاصرار والفهم والتضحية واحتمال المعاناة.

كلمات قليلة عميقة حازمة واثقة وكأنها قد كتبتها يد القدر.

هذه الرسالة لا تصدر إلا من «الروح العظيم» غاندى كما سماه استاذنا العقاد.

كلمات لا تصدر إلا من روح صافية شفافة وبالصفاء والشفافية، نفذ غاندى الى آفاق وأعماق تستمد منها الهند والإنسانية دروسا تعلم العقل كيف يصل النبل فى إلى قمة الحكمة فترشد سيرته، وتستقيم مسيرته فتهدأ الكروب، وتقف الحروب، وتعلو القيم.. وينتصر الخير.

وحسب غاندى هذا العطاء والاقتداء.